الجاحظ في الخطاب اللساني العربي

الأستاذ : يوسف منصر
قسم اللغة العربية
جامعة عنابة (الجزائر)

ملخص:

الغاية من هذه المداخلة تتبع حضور الجاحظ "اللغوي" في الخطاب اللساني العربي الحديث من خلال بعض نماذجه و كتاباته ، و الكشف عن السياق الذي تم استدعاء الجاحظ فيه،و الغايات المرجوة من ذلك الاستدعاء،

و لتحقيق ذلك، أي: تتبع صورة الجاحظ من ناحية والموقف من هذا الحضور في الكتابات الحديثة ذات الطابع اللغوي من ناحية أخرى،نوزع عملنا على المحاور الآتية:

*الجاحظ في الثقافة العربية الإسلامية .

*الجاحظ في إطار لسانيات التراث .

*دواعي القراءة في الخطاب اللساني العربي التراثي.

*الجاحظ وبعض المعارف والمفاهيم اللسانية.

*ملاحظات على صورة الجاحظ في الخطاب اللساني العربي التراثي.

Résume :

On estime à travers cet article à découvrir la présence d'EL JAHIDH dans le discours linguistique arabe moderne, tout en cherchant dans ses ouvrages sur quoi on agit pour déterminer le contexte ainsi que les objectifs souhaités qui ont fait appel à ce savant. Afin d'atteindre ceci , le contenu de ce travail se partage comme suit:

- ELJAHIDH dans la culture arabo-musulmane.
- ELJAHIDH dans le cadre du patrimoine linguistique arabe.
- Les prétextes de la lecture du patrimoine linguistique
- ELJAHIDH, connaissances et concepts linguistiques
- Remarques sur l'image d' ELJAHIDH dans l'ancien discours linguistique arabe.

1- الجاحظ في الثقافة العربية الإسلامية:

ينقسم التعامل مع التراث العربي في الثقافة العربية إلى ثلاث مراحل أساسية هي:مرحلة الإحياء و مرحلة الوصف ومرحلة التفسير، وللجاحظ حضور في هذه المراحل الثلاث إلى جانب شخصيات أخرى من أمثال عبد القاهر الجرجاني ، وسيبويه ،وابن جني، وابن خلدون،وغيرهم.

ففي« المرحلة الأولى تم نشر التراث،وقد ساهم رواد النهضة العربية وكثير من المستشرقين في إنجاز هذه المهمة ،وفي المرحلة الثانية انصب الاهتمام على التعريف بالتراث من خلال تقديم. رجالاته وتحديد محتوياته وقضاياه الكبرى» [1]. وهي المرحلة التي شهدت تقديم الجاحظ ومختلف مصنفاته وما احتوته من مواضيع وقضايا، وتشهد بذلك عناوين كتب ظهرت في تلك الفترة تعكس سمات هذه المرحلة،وأما المرحلة الثالثة فقد عرفت الانتقال من التعريف بالجاحظ سيرة وآثارا إلى القراءة التحليلية والنقدية لما كتب على ضوء المستجدات النقدية واللسانية المعاصرة،وقد تطلبت «اعتماد تصورات جديدة وأدوات معرفية حديثة لتجاوز نتائج مرحلتي الإحياء والوصف، في هذا الإطار ظهر ما يعرف بمفهوم القراءة الجديدة أو إعادة القراءة»[2]

.

2-الجاحظ في إطار لسانيات التراث:

تتنزل قراءة الجاحظ في الخطاب اللساني العربي،في إطار نمط من أنماطه هو الخطاب اللساني التراثي أو القرائي، وهو خطاب مؤسس على ثقافة حمل الفرع على الأصل بتعبير عبد السلام المسدي [(3)]وكل من يكتب في هذا الاتجاه اللساني عليه «أن يموضع كلامه بالنسبة لما يقوله النحوي القديم، وأن يسجل موقفه من التراث، والدور الذي يمكن أن يعود إليه في البحث اللساني المعاصر»[(4)]، وهو وضع ينطبق على الجاحظ،ويعبر عنه أحد اللغويين المعاصرين في سياق رده "نشأة اللسانيات الاجتماعية" إلى صاحب البيان والتبيين بالرغم أنه نجح إلى حد كبير في أن يقدم «وربما لأول مرة في تاريخ الفكر اللغوي الإنساني الأصول النظرية والتحليلية لعلم الاجتماع اللغوي ،وهي لا تحتاج إلا إلى إعادة صياغتها في قالب منهجي أكثر دقة و وضوحا مما صنع الجاحظ»[(5)] وفي الاتجاه نفسه يعتبر باحث آخر أن الهدف من دراسة الجاحظ اللغوي هو«كشف بعض البحوث اللغوية عند الجاحظ ودرسها على ضوء علم اللسانيات البشري الحديث لمعرفة بعض الحقائق حول التأثيرات العربية اللغوية في بناء ما يسمى اللسانيات»[(6)].

تتشكل القراءة إذن أو القراءة الجديدة الآلية الجوهرية في لسانيات التراث، والتي تعول عليها كل كتابة تنتمي إليه، غير أنها ذات أوجه متعددة

من حيث تفاعلها مع التراث ،فهناك القراءة الشمولية والقراءة القطاعية والقراءة ذات النموذج الواحد[7]،وكلها تتجاوز حدود « شرح وتنظيم المادة الموجودة في التراث »[8]،إلى محاولة « تأويله و الربط بينه وبين ما هو موجود حاليا من درس وبحث بغية الخروج إلى الحاضر والمعاصرة »[9].

أ-القراءة الشمولية:

وهي القراءة التي تتعامل مع التراث اللغوي العربي القديم «كموجود لغوي قائم الذات ،باعتباره كتلة من الدوال المتراصفة، وإعادة قراءته هي إذن «تجديد لتفكيك رسالته عبر الزمن»[10]. وفي إطار هذه القراءة عرضت آراء لغوية جاحظية إلى جانب آراء لغويين قدماء ،من خلال محاولة استنطاق نصوصهم، والوقوف على ما فيها من نظرات لسانية «لم تهتد إليها البشرية إلا مؤخرا بفضل ازدهار علم اللسان منذ القرن العشرين»[11]، ومن بين تلك المؤلفات التي نجد فيها ذكرا للجاحظ اللغوي تمثيلا لا حصرا:

*التفكير اللساني في الحضارة العربية الإسلامية /لعبد السلام المسدي

*تأملات في نظرية الدلالة في الفكر اللغوي العربي/ لأحمد المتوكل

*أصول تراثية في علم اللغة / زكي حسام الدين

*بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب /عبد الجليل مرتاض

ب- القراءة القطاعية:

تهتم هذه القراءة بجانب معين في الظاهرة اللغوية في إطار التراث اللغوي، «كأن يتناول المستوى النحوي أو الصرفي أو الدلالي، باعتبارها مستويات تحليل، تشكل في حد ذاتها نظرية محددة المعالم تقوم على مبادئ منهجية خاصة بها»[(12)]، وللجاحظ أيضا حضور في مثل هذا الصنف من القراءات بدليل المؤلفات التالية:

- علم الدلالة العربي.
- دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي

ج- القراءة ذات الأنموذج الواحد:

وهي القراءة التي تركز على الجهود اللغوية لشخصية تراثية مختارة « فتدرس فكرها اللغوي وطريقة تصورها،وكيفية تناولها لقضايا اللغة العربية في مجال من مجالات البحث اللغوي»[(13)]،وفي هذا الإطار يحفل الخطاب اللساني العربي بقراءات تناولت الجهود اللغوية للجاحظ، من ذلك:

*النظريات البيانية والبلاغية عند الجاحظ.

*الجاحظ وعلم اللغة.

*اللثغة عند الجاحظ.

*الجاحظ والأمراض اللغوية.

3-دوافع قراءة الجهود اللغوية للجاحظ:

تختلف الأسباب والدوافع التي يقدمها لسانيو التراث لأجل تنفيذ القراءة أو القراءة الجديدة سواء على التراث اللغوي في كليته،أم على مستوى لغوي معين،أم على نموذج تراثي لغوي مختار،ويمكن حصر هذه الدوافع في:

3-1- مكانة الجاحظ في التراث اللساني العربي الإسلامي:

«إذ هو العالم اللغوي والأديب المفكر، بل هو المعلم الأول في عصره ،إنه الموسوعة العلمية المبدعة التي تعلم العقل أولا، والأدب ثانيا،من هنا فان شخصية الجاحظ هي شخصية حية عبر الأجيال»[(14)]، مما يجعل قراءة الإرث الجاحظي مفتوحة على التجدد والتنوع تعدد الباحثين والدارسين أنفسهم.

وحتى تستقيم القراءة كان لابد من نفي سمة اللاانتظام أو الفوضى،التي طبعت أسلوب الجاحظ في التأليف ،فدعا أحدهم برفع الظلم عنه و إعادة قراءته بعيدا عن التصور المزعوم حول طريقة التأليف،حيث يقول:«وفي ظني أن الجاحظ قد ظلم في هذه الشهادة؛لأن نظرة دقيقة متأنية في الكتاب-يقصد البيان والتبيين-تؤكد أن القضايا كلها التي عالجها الجاحظ تدخل تحت الباب العام الذي يريد التحدث عنه»[(15)]، ثم يواصل معللا رأيه بضرب من التحليل النفسي،إذ يقول :«ولو حاولنا أن نلتمس الوحدة النفسية

والشعورية –كما يقول العقاد–بين هذه القضايا لوجدنا سببا قويا يضمها وينظمها»[16]

3-2-الإغراء النظري في كتابات الجاحظ[17]:

وأقصد بذلك أن قراءة لسانيي التراث ،كشفت عن مقولات جاحظية تحاكي حد التطابق مقولات الدرس اللساني الحديث،وهو ما دفعهم إلى إقامة المقارنات، واستنتاج المماثلات والتقاربات، فللجاحظ – بحسب لسانيي التراث– «ملاحظات تؤلف في مجموعها إدراكا واضحا ومباشرا للبعد الاجتماعي للغة ،وعلاقة اللغة بالمجتمع ،فهو يتحدث عن التنوعات اللغوية والمجتمعات الكلامية وتفرع اللغة إلى لهجات ،واللهجات الاجتماعية واللغة الفصحى وعلاقاتها بالعاميات، واللكنة، واللهجات الإقليمية، والعربية الهجين،وغير ذلك في إطار العربية وتنوعاتها المختلفة»[18]،ولا يتوقف المد الجاحظي عند حدود البعد الاجتماعي للغة بل يتعداه إلى اختصاصات لسانية أخرى، فلقد تحدث الجاحظ عن مفاهيم تَمُتُّ بصلة إلى لسانيات النص ،وإلى علم أمراض الكلام، وبعض مفاهيم اللسانيات البنوية كمحوري الاستبدال والتراكيب،ومبدأ الاعتباطية وغيرهما إلى جانب قضية الثنائية اللغوية، وإشارات « تشكل العناصر المبدئية لنظرية الأسلوب»[19]زيادة على حديثه عن أهمية المصطلحات في أية منظومة معرفية.

3-3- الفكر الاعتزالي:

الجاحظ أحد المنتمين إليه، بكل ما يعنيه هذا الفكر من اعتماد على النظر العقلي، والتجريد الأصولي ،وهو ما يجعل من فكر الجاحظ اللغوي مكتسبا لبعد وثوقي، خاصة وأنه سيفاضل أو يقارب أو يماثل بمنجز ينتمي إلى فكر حداثي منبعه التقصي العلمي للظاهرة اللغوية ،باصطناع المنهجية العلمية الدقيقة.

إضافة إلى الدوافع الثلاثة إلى قراءة الجاحظ،فثمة دافعان آخران يطالان الجاحظ وغيره من الشخصيات التراثية التي أعيد بعث فكرها اللغوي وإحياؤه عبر قراءتها وفق الأوجه القرائية المذكورة آنفا،وهما:

أ- إسقاط مساهمة الفكر اللغوي العربي القديم من تاريخ البحث اللساني البشري فجل الكتابات التي أرخت لحركات البحث في اللغة واتجاهاتها تقفز على المرحلة التي أعطى فيها علماؤنا العرب القدامى الكثير من الأفكار والتصورات والنظريات حول الظاهرة اللغوية، ومن ثمة يصبح الخطاب اللساني التراثي في بعد من أبعاده المختلفة وصلا لمفصول من حلقات الفكر البشري عامة،وتنبيها إليه، فأحمد المتوكل اللساني الوظيفي مثلا، يعلل عودته لمنجزات الفكر اللغوي العربي القديم انطلاقا « من موقف ابستيمولوجي مفاده أن الخطاب العلمي يتصف بتوحده وكونيته، فهو خطاب يتجاوز السياق التاريخي ليدخل في علاقة تواصل وتفاعل مع الخطاب العلمي الحديث، وبذلك فالخطاب اللساني العربي القديم جزء من الخطاب العلمي

حول اللغة وأشكال الدلالة، وليس عالما منغلقا بتاريخيته منقطعا عن الفكر الألسني الحديث»[20]

ب- إن البحث اللساني المعاصر ،والغربي خاصة، مدين للجهود اللسانية التقليدية بدليل إفادته منها والرجوع إليها، وهذا يعني أن لسانيات التراث تتخذ من اللسانيات في حد ذاتها دليلا على مشروعية القراءة وإعادة القراءة أو التقريب والمماثلة بين الفكريين اللغويين القديم والحديث،فقد «جاء كتاب اللسانيات الديكارتية ليكون مثالا حيا على اهتمام اللغويين المحدثين بضرورة العودة إلى التراث،...فقد استطاع تشو مسكي في هذا الكتاب أن يقف على العديد من العناصر التي تمثل اتقاء واتفاقا بين معطيات نظريته التوليدية التحويلية وبين القواعد التي أرساها ديكارت فيما يعرف باسم قواعد بوروايال»[21]

الجاحظ واللسانيات النصية:

من بين العلوم التي يستثمر فيها لسانيو التراث "الجاحظ":لسانيات النص linguistique du texte ،فإن كانت هذه الأخيرة تعني دراسة النصوص بوصفها وحدة اتصالية من خلال الاهتمام بسياقاتها وغاياتها ومقاصدها،فإن القدماء من اللسانيين البلاغيين –على حد تعبير أحدهم « قد أتيح لهم أن يلاحظوا لتلك التحققات – أي النصوص المنجزة- مقومات نصية جوهرية مشتركة فضلا عما لاحظوه من مقومات نصية بنائية جوهرية، خاصة مثل تلك التي تفرق بين قصيدة ورسالة أو بين رسالة وخطبة»[22]،

والمسوغ لهذا الاختراق الجاحظي لعلم لسانيات النص هو ما لاحظه هؤلاء أنفسهم من تقارب بين هويتين معرفيتين إحداهما قريبة والأخرى حديثة ، حتى اعتقد بإمكانية «عد البلاغة الصورة الأولى لعلم والقديمة لعلم النص »(23) وزيادة على ملمح التقارب ،يتداخل العلمان من حيث مجال البحث أو المادة المدروسة إذ هي اللغة في حالة اشتغال أو تحقق، ونعني بهذا « الانتقال من دراسة اللغة في نظامها الافتراضي إلى دراستها في تجليها الطبيعي حيث يستعملها الناس إنتاجا وتلقبا في موقف ما،من أجل التواصل »(24).

و من بين مفاهيم اللسانيات النصية التي نجد لها أثرا في كتابات الجاحظ الثنائية النصية:السبك والحبك وهما من « أهم نلك المقومات النصية المشتركة التي وقف عليها اللسانيون البلاغيون منذ القرن الثالث الهجري »(25) ،والحبك في عرف المحدثين هو الصورة التي تكون عليها هيئة المفاهيم والعلاقات التي تحت سطح النص مترابطة بشكل منطقي بحيث لا يتعثر هذا الترابط الدلالي في مستوى من مستوياته مما يجعل التواصل بين المخاطب والمتلقي متعذرا على مستوى ما أريد أن يقال لا على مستوى كيف قال وعبر، وأما السبك فمقصور على تحقق الترابط اللغوي أو الانسجام على مستوى الكتل النطقية أو السلاسل الجملية،بحيث لا يشعر القارئ أو المستمع

بأية انقطاعات أو فجوات فيما يلقى عليه، مما يحول بينه وبين مضمون الإرسالية.

لقد استطاع الجاحظ بحسب لسانيي التراث أن يلامس هذين المفهومين ، وذلك مستشف مما رواه هو نفسه عن عمر بن لجأ إذ قال لأحد الشعراء:« أنا أشعر منك ،قال وبما ذاك؟ قال لأنني أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه »[26] ،فالدلالة في هذا السياق صريحة من حيث أن « الأخوة والعمومة إشارة إلى درجة قوة الترابط الدلالي بين سلاسل المنطوقات المتواليات، مما يصير به النص كلا موحدا»[27].

وإلى جانب مفهوم الحبك أخرى- لاحظ قراء الجاحظ تفطنه إلى مفاهيم أخر تنتمي في الثقافة اللسانية المعاصرة إلى لسانيات النص ومنها مفهوم الابتداء، بل قد اعتبر البعض منهم صنيع الجاحظ « أقدم الإشارات إلى بلاغة الابتداء»[28] في إشارة ضمنية لإحرازه قصب السبق.

والابتداء في المنظومة اللسانية النصية « الوحدة البنائية الأولى من النص، وهي وحدة سمعية ومعنوية تفتح للخطاب قناة الاتصال »، [29] ويكتسب هذا المفهوم أهميته من المنظور الوظيفي أو واقع الاستعمال اللغوي، من حيث توقف شد المستمع وجره إلى بهو النص ،على الجملة الافتتاحية ،إذ منها ما قد لا يثير فينا ذلك الوقع أو الأثر بما يكفي لأن نتواصل بشكل فعال ومتفاعل مع النص، ومنها ما يشنف أسماعنا بلغته

وجودة تأليفه ،ويشد الفكر بلطائف مداخله، وفي هذا الصدد تقع إشارة الجاحظ إلى مفهوم الابتداء، وإن كان ذلك بألفاظ وعبارات مغايرة،كما رأينا مع مصطلح الحبك، فقد أورد في بيانه وتبيينه نصين أولهما لابن المقفع من أنه جعل البلاغة اسما جامعا لمعان تجري في وجوه كثيرة، وذكر من هذه الوجوه ما يكون في الابتداء(30)، ولنا في هذا الإطار أن نستنتج فاعلية الابتداء كعتبة نصية خاصة إذ ارتبط بحسب الجاحظ وقراءه بالنص البليغ.

وأما الإشارة الثانية فأوردها عن شبيب بن شيبة بقوله: «الناس موكلون بتفضيل جودة الابتداء، وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة المقطع وبمدح صاحبه»(31).

أنتهي من كل ما تقدم إلى ملاحظة أن المتن الجاحظي يتقاطع مع اللسانيات النصية في جملة من المفاهيم، تعكس وعيه بأسس الصناعة النصية ومختلف مظاهرها – طبعا بحسب لسانيي التراث–.

الجاحظ وأمراض الكلام:

قاد تتبع الجاحظ للاستعمالات اللغوية في سياقها الاجتماعي،والحرص على التوجيه نحو خطاب مؤثر ومقنع، إلى الوقوف على حالات الإنجاز أو التحقق اللغوي غير السوي، سواء في مستواه الدلالي أو الشكلي وكلها عوامل « تؤدي إلى إفساد البيان وتنفير المتلقي مما يسمع أو

يقرأ»[32]،وقد عبرت عن ذلك مصطلحات عديدة تشي بهذا التصور ،كالعي والحصر، واللثغة،والتأتأة والفأفأة والرتة والعجمة وغيرها، «كما طرح عدة آراء تميزت بالدقة وعمق النظر في تحليل هذه الأمراض وبيان أسبابها، وما يمكن أن تؤدي إليه من تنافر اجتماعي ومزالق لسانية خطيرة ،فاقتربت بذلك آراؤه من البحوث اللسانية المعاصرة القائمة على المعايير النفسية والطبية وقضايا علم الاجتماع اللغوي وما أنتجته التكنولوجيا الحديثة في هذا الميدان»[33]

الجاحظ و اللسانيات البنوية:

كشفت قراءة المتن الجاحظي لدى لسانيي التراث ،عن أسبقيته في معالجة بعض أسس اللسانيات الحديثة خاصة المتعلقة بالمبادئ اللسانية التي أرساها فردينان دي سوسير،وقد اخترت منها مبدأين اثنين هما:ثنائية محور التراكيب ومحور الاستبدال ،وقضية الاعتباطية المتحققة في صلب الدليل اللساني.

ففيما يتعلق بمحور التراكيب فيعرف في علم اللسان الحديث بأنه

« الطريقة التي تجتمع فيها العناصر اللغوية لتشكيل تركيب معين »[34]، وأما محور الاستبدال فيعرف في السياق نفسه بأنه « ارتباط مجموعة من

العناصر القابلة أن يحل الواحد منها محل الآخر في موضع ما، ضمن تركيب معين»[35]،وهما تعريفان يتطابقان مع ما استخرج من تصانيف الجاحظ من مقاطع نصية تؤكد انتباهه إلى هذين المحورين بل إنه – كما يقول أحدهم –« كان يعرفهما معرفة جيدة»[36] على خلفية فقهه في سبك النصوص وصناعتها وعلمه بأقدار المعاني ومنازل الألفاظ في أي تشكيل لساني شعريا كان أم نثريا، ثم تعمد تلك القراءات إلى صياغة المصطلحين الجاحظيين المقابلين للثنائية السوسيرية المذكورة وذلك بالاعتماد على دوال تحيل ضمنا على هذين المفهومين فكان من ذلك استعماله للفظي التأليف والتخيير أو كلمتي النير و السدى،فمن شواهد محور التأليف بلغة اللسانيات أو النير بلغة صاحب البيان والتبيين قوله في سياق تعليقي:« وهذا دليل على أن العرب أنطق ،وأن لغتها أوسع وأن لفظها أدل وأن أقسام تأليف كلامها أكثر»[37]،وقوله أيضا « وترى اللفظ يجري على سجيته وعلى سلاسته حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف»[38]،و قوله في موضع آخر« فإذا رأت مكانه الشعراء ،وفهمته الخطباء،ومن قد تعبد المعاني وتعود نظمها وتنضيدها وتأليفها. ......علموا أنهم لا يبلغون بجميع ما معهم...قليلا مما يكون معه على البداهة و الفجاءة»[39].

وأما محور التخيير أو الاستبدال فأدلته في المتن الجاحظي سياقية، إذ غالبا ما تقترن لفظة "تخير" في استعمالات الجاحظ بمفهوم يتضمن إمكانيات التعويض والتبادل بين مجموعة دوال لسانية،كقوله في مواضع متفرقة "تخير اللفظ" أو "هم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني" أو "الألفاظ المتخيرة وغيرها".

ويستخلص أحدهم من كل ذلك أن الجاحظ «كان يتشخص المحورين بوضوح ،فقد اكتشف قبل المدرسة البنوية مفهومي النير والسدى اللذين يعد اكتشافهما تغييرا حاسما في اللسانيات الحديثة»(40)

تقاطعات أخرى للجاحظ واللسانيات الحديثة:

إن دائرة الاشتراك بين آثار الجاحظ والعلوم اللسانية لا تنغلق فقط على ما ذكرناه بل تتسع لتشمل قضايا أخرى نذكرها تباعا مشفوعة بشواهدها المستنطقة من المدونة الجاحظية بيانا وحيوانا ورسائل:

أ- الازدواج اللغوي:

« اللغات إنما تشتد وتعسر على المتكلم بها على قدر جهله بأماكنها التي وضعت فيها ،وعلى قدر قلة العدد وقلته، وعلى قدر مخارجها وخفتها وسلسها وثقلها وتعقدها في أنفسها»(41)

وأيضا:«متى وجدناه أيضا قد تكلم بلسانين، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها وتعترض عليها ،وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه كتمكنه إذا انفرد بالواحدة وإنما له قوة واحدة،فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما»(42)

ب- مبدأ الاعتباطية:

وهو أحد مبادئ اللسانية البنوية ويقضي بتأسس العلاقة بين طرفي الدليل اللساني من دون مرجعية منطقية بحيث لا يتيسر للعقل تبرير هذا الاقتران ،والنص الآتي يؤكد أسبقية الجاحظ في الكشف عنه ،حيث يقول في مداعبة أدبية كما يقول أحدهم(43):« وما تعرف دمشق إلا بدمشق ولا فلسطين إلا بفلسطين»(44).أي أن لكل مدلول دالا يرتبط به ويدل عليه بفعل الاصطلاح والمواضعة الحاصلة بين أفراد المجموعة اللسانية ،وهو ما يعني الحكم على العلاقة بين وجهي العلامة اللسانية بالاعتباطية أو الاقتران التعسفي.

ج- أهمية المصطلح:

يعي الجاحظ أهمية الجهاز المصطلحي في أية منظومة معرفية، لأنَّ اصطناع المصطلح هو في حقيقته تأسيس للغة تلك المعرفة التي يكون بها التحاور بين أهلها، وشاهد ذلك قول الجاحظ:« لكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكل بينها وبين تلك الصناعة»[45].

د- الأسلوب:

يتقدم الجاحظ على الجرجاني من حيث كونه صاحب «مصطلح النظم وأول من تحدث فيه»[46] بكل ما يحيل عليه هذا المصطلح من تقارب مع مفهوم الأسلوب،وينطلق قراء الجاحظ من بعض المعايير اللفظية والمعنوية التي تحدث عنها لأجل إنجاز نص مسبوك محبوك، دليلا على اهتدائه إلى بعض المقاييس الأسلوبية التي يقررها المحدثون في ميدان الأسلوبيات،ونحيل القارئ في هذا الصدد إلى القراءة التي قدمها الأستاذ الفاضل عبد السلام المسدي حول الجاحظ بين منهج التأليف ومقاييس الأسلوب[47].

ملاحظات حول صورة الجاحظ:

أقف بعد هذا العرض المختصر لتقاطعات المتن الجاحظي وبعض العلوم اللسانية الحديثة أو بعض مفاهيمها إلى ذكر بعض الملاحظات حول هذه القراءة/القراءات:

1-سعيها لإبراز قيمة الجاحظ وأصالة فكره وهذا أمر لا يختلف فيه اثنان، لكن الإشكال في كيفية استجلاء تلك الأصالة، فهل نحن مضطرون لأن نقارنه بسوسير أو مارتيني أو غيرهما لإثبات الأصالة، أفليس إثباتها بهذه الكيفية أضر بالجاحظ من حيث أردنا الإحسان؟ أفليس من الحيف أن يقارن الجاحظ المنتمي تاريخيا وحضاريا إلى بنية مغايرة للبنية التاريخية والحضارية التي تم اصطفاء عناصرها لمقارنته بها.؟أوليس من الأجدى والأكثر معقولية أن نتبين أثر الجاحظ وقيمته في إطار سياقه العام أي التراث العربي الإسلامي ومن خلال قياس مساهماته على العناصر التي تقاسمه البنية التاريخية والحضارية نفسها كالجرجاني والتوحيدي وغيرهما.

2-اعتماد مثل هذه القراءات على التأويل وفاعليته، فهم حينما يواجهون النص اللساني الحداثي بالنص الجاحظي يعمدون إلى تأويل النص الثاني وتخريجه بشكل ينطبق على الحمولات الدلالية للنص الأول ليتفوق عليه،بل إننا قد نتحسس الخوف الذي «يشعر به كل قارئ للنص القديم ..من عدم الوقوف على المعنى المقصود الذي يرومه صاحب النص الأصلي لذلك تأتي التأويلات مشفوعة بعبارة "في ظني" و"في زعمي" وما قاربهما»(48).

3-تأسس قراءة آثار الجاحظ على ضوء المعرفة اللسانية، لا يعتمد على دوافع علمية بدليل أن هذه القراءة أو القراءات تضع هدفا لها تبيان وجوه التقارب بين القديم والحديث أو سبق القديم للحديث، وهما وضعيتان لا يمكن بأي حال أن نصفهما بالهدف العلمي، إذ لا يعقل أن يكون الهدف من الغوص في أعماق التراث ودقائق الدرس اللساني الحديث أن نعلن أن هذه الشخصية التراثية كانت أسبق والأخرى كانت الأفطن والأوعى،في مقابل تجاهل اللغة العربية من حيث هي المعنية الأولى بهذا الجهد، وفي حالتها الراهنة ما يستدعي ذلك،وليس من تفسير نسوقه إزاء هذا الوضع غير انبناء هذه القراءة في عمقها على «دوافع نفسية بالدرجة الأولى هدفها الاطمئنان على عصرية التراث الفكري وربطه بالتيار الفكري العالمي ،ولكن ما تتغافل عنه أن غض النظر عن الاختلافات الزمنية والفوارق الحضارية والثقافية وتجريد النتاج الفكري عن زمانه وعن الحضارة التي انتجته هو تجريد له من جزء من معناه ومغزاه، وهذا ما يقود إلى فهم جزئي إن لم نقل أنه يقود إلى إساءة فهم كلي له»[(49)] .

وخلاصة القول أننا لا نعيب على أصحاب هذا المنحى في التعامل مع تراث الجاحظ سعيهم إلى إبراز جوانب نيرة من فكره، فهذا واجب حضاري تجاه تراثنا الذي هو جزء من ذاتنا، ولكن الذي لا نوافقهم عليه أن تتحول القراءة ،والتي يفترض فيها أن تتفتح على أبعاد وآفاق جديدة إلى نوع من الوثوقية واليقينية بحيث يتجمد كل نشاط علمي أو فكري ويتركز في

لحظة زمنية واحدة، والأكثر من كل هذا أننا نتوهم تحقيق جديد من خلال قديم الجاحظ في حين أن هذا الجديد هو جديده فأين يا ترى جديدنا؟.

الهوامش و المراجع

1 –:مصطفى غلفان :اللسانيات العربية الحديثة:دراسة نقدية في المصادر والأسس النظرية والمنهجية، جامعة الحسن الثاني – عين الشق– الدار البيضاء، سلسلة رسائل و أطروحات، رقم:56/4، د ت،ص 134

2 – المصدر نفسه،ص ن.

3 – قضية البنيوية:عبد السلام المسدي،دار الجنوب للنشر،تونس،ب ط،1995،ص 12

4 – لسانيات الظواهر وباب التعليق،عبد القادر الفاسي الفهري،ضمن البحث اللساني والسيميائي،سلسلة رقم6، منشورات كلية الآداب، الرباط،1984،ص 32.

5 – دراسات في اللسانيات التطبيقية:حلمي خليل،دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000 ،ص 155

6– قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث،مازن الوعر دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر،دمشق،ط1984،1، ،ص534

7 – اعتمدنا هذا التصنيف الذي يعود إقراره بهذا الشكل للأستاذ مصطفى غلفان صاحب الدراسة النقدية للسانيات العربية الحديثة المشار إليها في هوامش سابقة.

8– لسانيات الظواهر وباب التعليق،عبد القادر الفاسي الفهري،ص.31

9–.المصدر نفسه،.32

10- التفكير اللساني في الحضارة العربية:عبد السلام المسدي،الدار العربية للكتاب،ط1981،1،ص12.
11- مباحث تأسيسية في اللسانيات: عبد السلام المسدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، للنشر والتوزيع ،تونس ،ب ط،ص31. .
12- اللسانيات العربية الحديثة:مصطفى غلفان،ص136..
13- المصدر السابق،ص .137
14- قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث،مازن الوعر ،ص.533
15-المصدر السابق،ص .53
16- المصدر نفسه،ص 54..
17- استوحينا هذا العنوان الفرعي من المحاولة التي اتخذتها أنموذجا والتي قام بها الأستاذ مصطفى غلفان حول الجرجاني في كتابات اللغويين العرب/مخطوطة.
18- دراسات في اللسانيات التطبيقية:حلمي خليل،ص 155
19 - قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون:عبد السلام المسدي،دار سعاد الصباح،الكويت،ط4، 1993،ص 130
20 -مفهوم القراءة الجديدة للتراث اللساني العربي،علي العشي،الحياة الثقافية،تونس،ع44، 1987،ص 137
21- أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث،حسام البهنساوي،مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة،1994/1414،ص.2
22 - حبك النص: محمد العبد،مجلة فصول،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة،العدد:54،السنة:1994،ص54.

23 - علم النص،أسسه المعرفية وتجلياته النقدية:جميل عبد المجيد حسين،مجلة عالم الفكر،العدد 2،المجلد:35، أكتوبر-ديسمبر،2003،ص.142

24 - المصدر نفسه،ص141

25 - حبك النص: محمد العبد،ص59

26 - البيان والتبيين:الجاحظ،تحقيق عبد السلام هارون،مكتبة الخانجي،القاهرة،ط 5،ج1،ص206

27- حبك النص: محمد العبد،ص59

28 - المصدر نفسه،ص 65

29 - المصدر نفسه،ص 65

30 - المصدر نفسه،ص 65

31 - البيان والتبيين:الجاحظ،ج1،ص112

32 --دلائل اكتساب اللغة في التراث اللساني العربي:بشير إبرير،منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية،مطبعة المعارف،الجزائر،2007،ص54

33 - اللثغة عند الجاحظ:أحمد حابس، مجلة اللسانيات واللغة العربية،منشورات مخبر اللسانيات واللغة العربية،العدد:الأول ديسمير 2006،ص .67

34- مدارس علم اللغات:ابن رشد المعتمد وخريص محمد،المكتبة الثقافية،الدار البيضاء،193،ص45

35 - المصدر نفسه،ص 46

36 - النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ: محمد الصغير بناني،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1983،ص .310

37 - البيان والتبيين:الجاحظ،ج1،ص384 (ط3)

38 -المصدر نفسه،ج3،ص7/6 (ط3).
39 - المصدر نفسه،ج3،ص30،(ط3).
40 - النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ: محمد الصغير بناني،ص315
41 - الحيوان، الجاحظ، ، ط2، 1965،ج5،ص .289
42 - المصدر السابق،ج1، ص76-.77
43 - التفكير اللساني في الحضارة العربية: عبد السلام المسدي،ص.108
44 - الحيوان: الجاحظ،ج1،ص208
45- المصدر السابق،ج3،ص.368
46 -دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث:أحمد درويش، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة،دت، دط،ص90
47 - قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون:عبد السلام المسدي،دار سعاد الصباح،الكويت،ط4، .1993
48 - الجرجاني في كتابات اللغويين العرب:مصطفى غلفان،مخطوط(جامعة الحسن الثاني /عين الشق الدار البيضاء،المغرب).
49- تجليات اللسانيات في الثقافة العربية الحديثة:حافيظ اسماعيلي علوي، رسالة دكتوراه/مخطوطة،جامعة الحسن الثاني/كلية بنمسيك للآداب ،ص216